ندوة «الدوريات الثقافية»

شهادة... في مجلّة «الآداب»

أقام المجلس الوطني للثقافة والعلوم والفنون في الكويت «ندوة الدوريات الثقافية العربية في وضعها الراهن وآفاق المستقبل» بين ٧ و٩ أيار الماضي. وتنشر «الآداب» في هذا العدد الأبحاث والشهادات التي قدمت في هذه الندوة.

الدكتور سهيل ادريس

في مطلع هذا العام ١٩٩٠، دخلت «الآداب» عامها الثامن والثلاثين.

ولعلّ هذه المجلة، باستمرار صدورها هذه المدّة من غير انقطاع، وبإشراف رئيس تحرير واحد لم يتغيّر، هي أطول المجلات الأدبية عمراً، في تاريخ الثقافة العربية.

وإنّي إذ أُدلي بشهادتي في مسيرة «الآداب» أتساءل عمّا إذا كان ممكناً أن يتحلّى بالموضوعية والتجرُّد إنسانٌ عايش طوال هذه الحقبة مجلّة استقطبت كلّ همومه، وخالطت منه اللحم والدم وأورثته ألواناً من القلق بلغت أحياناً حدود العذاب، وإن كانت قد خلّفت لديه، في كثير من الأحيان، شعوراً من الرضى وراحة الضمير؟

إذا لم أستطع أن أكون موضوعياً ومتجرّداً، فسأحاول أن أكون صادقاً؛ وسيخفّف من أعباء هذه الشهادة أن أقدّم مقتطفات غير قليلة صدرت في شهادات كثير من الأدباء الذين أسهموا في «الآداب» ورافقوها طويلاً في حمل الرسالة التي انتدبت نفسها لها، وشاركوا بذلك في الدور الذي نهضت به، على الصعيد الأدبي، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين.

تقول سلمى الخضراء الجيوسي: «لا أذكر «الآداب» إلّا وتمتدُّ أمامي صور العالم العربيّ الواسع. هذا لا يعود فقط إلى أن «الآداب» اقترنت بهذا الوطن وقضاياه منذ نشأتها، وفتحت منبرها الحرّ لأدبائه وشعرائه جميعهم، بل لأنها اقترنت بشخصيّته أيضاً، وعكستها كما لم تعكسها مجلة أدبية أخرى في العالم العربي».

وهل بالإمكان تبنّي رأي نجيب محفوظ في القِيَم التي تمثّلها «الآداب» في أعين المثقفين العرب: «إنها تمثّل الملتقى الذي يتحاور فيه مفكّرو العرب كلّ شهر، وتمثّل الصلة بين الحاضر والتراث والعصر الحديث»؟

ويقول الشاعر محمود درويش: «كانت «الآداب» امتدادي وأفقي العربيَّ الواسع. منها أخذتُ أصابعي والشعرَ الحديث (...) وقد كنت أنا وزملائي في الجزء المحتلّ من الوطن نتقاسم «الآداب» كما نتقاسم رغيفَ الخبز والزنزانة».

ويقول نزار قباني، شاعر المرأة، «إن «الآداب» هي أول امرأة علّمتني كيف أكتب جيّداً وكيف أغنّي جيّداً».

ويقول الشاعر سليمان العيسى: «اقرأوا «الآداب»، ولا سيّما في مجلّداتها الأولى، ستجدون كتّابنا وشعراءنا الذين حملوا الشعلة وقاتلوا بالكلمة، إلى جانب السجن والتعذيب والدمع والدم».

ويقول الشاعر أمل دنقل: «إنني أحسِبُ عمري بأعداد «الآداب». لست وحدي في هذا، جيل كامل ظلّت «الآداب» وجبتَه الشهريّة الدّسمة، والحبلَ السُرّي الذي يصلُه بالأمّ: العروبة».

ويتحدّث الدكتور حسين مروّة عن مسار «الآداب» فيقول: «ذهب هذا المسار في مداره من حركة التحرّر الوطني العربيّة، يرصد فعل هذه الحركة في المدى الأوسع لمختلف حقول التشكيل الأدبيّ والفكريّ على الخارطة العربية بوسعها الكامل، كما يرصد فعل النتاج الأدبيّ والفكريّ في هذه الحركة على خارطة المجتمع العربي بوسعها الكامل... لذا كان فضل «الآداب» أنّها تفرّدت تقريباً بكونها هذا السجلّ المفتوح الذي يتأسّس معناه الإيجابي على كونه القيمة الوثائقية النّادرة، في عالم المجلات العربية، لدراسة أبرز الظاهرات الشعرية والقصصيّة والنقديّة في الوطن العربي بكامله، خلال مرحلة تاريخية بكاملها».

★ ★ ★

أيّها الحفل الكريم

حين أصدرت مجلة «الآداب» مطلع عام ١٩٥٣، بعد عودتي من باريس، كنت قد خطّطت لها طويلاً. وقد أوردت ملخّص هذا

التخطيط في الافتتاحية التي حملها العدد الأول (كانون الثاني ١٩٥٣) فقلت فيها:

«تؤمن المجلّة بأن الأدب نشاط فكريّ يستهدف غاية عظيمة: هي غاية الأدب الفعّال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثّر فيه بقدر ما يتأثّر به. والوضع الحالي للبلاد العربية يفرض على كل وطنيّ أن يجنّد جهوده للعمل، في ميدانه الخاصّ، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسيّ والاجتماعيّ والفكريّ. ولكي يكون الأدب صادقاً، فينبغي له ألّا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه.

«وهدف المجلة الرئيسيّ أن تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم، ويُعَدُّون شاهداً على هذا العصر: ففيها هم يعكسون حاجات المجتمع العربيّ ويعبّرون عن شواغله، يشقّون الطريق أمام المصلحين لمعالجة الأوضاع بجميع الوسائل المجدية. وعلى هذا فإن الأدب الذي تدعو إليه المجلّة وتشجعّه هو أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربيّ ويصبُّ فيه».

وتابعتُ أقول في تلك الافتتاحيّة:

«والمجلّة، إذ تدعو إلى هذا الأدب الفعّال، تحمل رسالة قومية مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم، يستطيعون على الأيام أن يخلقوا جيلاً واعياً من القرّاء يتحسّسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكوّنون نواة الوطنيين الصالحين. وهكذا تشارك المجلة، بواسطة كتّابها وقرّائها، في العمل القومي العظيم، الذي هو الواجب الأكبر على كل وطنيّ.

«على أن مفهوم هذا الأدب القوميّ سيكون من السعة والشمول حتّى ليتّصل اتّصالاً مباشراً بالأدب الإنساني العام، ما دام يعمل على ردّ الاعتبار الإنساني لكلّ وطنيّ، وعلى الدعوة إلى توفير العدالة الاجتماعيّة له، وتحريره من العبوديّات المادّية والفكريّة، وهذه غاية الأنسانية البعيدة. وهكذا تسهم المجلة في خلق الأدب الإنسانيّ الذي يتّسع ويتناول القضيّة الحضاريّة كاملة. وهذا الأدب الإنسانيّ هو المرحلة الأخيرة التي تنشدها الآداب العالمية في تطوّرها».

هذا بعض ما خطّطتْ له «الآداب» منذ صدورها. وقد أجمع عددٌ كبير من الدارسين والنّقّاد على أن المجلة وفتْ بالتزامها، لا سيّما الخطّ القوميّ.

قال الدكتور سعدون حمادي في ذلك: «لقد خطت «الآداب» خطوة جديدة إلى الأمام في مجال نشر الوعي القومي والدعوة للوحدة العربية.. وتولّت مهمّة الدعوة إلى تجديد المجتمع العربي، واعتمدت الواقع العربي أساساً ولم تنفصل عنه».

وقال محمد النقّاش: «لم تكتف «الآداب» في رحلتها الشاقّة والسعيدة معاً برفع لواء الأدب الجيّد والجديد والملتزم، فرفعت باليد الثانية مشعل القومية العربية المتحرّرة وثورتها العارمة... وبذلك أصبحت مجلة العرب الأولى على صعيد الروح والفكر والمذهب».

وقال ناجي علوش: «كانت «الآداب» منبراً قومياً... وخاضت معركة الوحدة والتحرّر ضدّ التجزئة والتخلّف، ومعركة الجديد ضدّ القديم البالي».

وكتب الشاعر بلند الحيدري يقول: «كان لمجلة «الآداب» حسٌّ قويم بأصالة التراث العربي المتأكّد بالوعي به، والنّازع إلى كلّ جهدٍ إبداعي فيه، والمنتصر لكل جديد يغنيه، بحيث لا يكون لقديم هذا التراث أن يقف حائلاً دون نشوء جديده الذي يريد أن يتمايز به وأن يتفاضل عليه بموقف الإبن المتطوّر من أبيه، كما لا يسمح لجديده أن يتنكّر لعظيم مآثر تراثنا القديم وجليل ما فيه من الأعمال... فكان «للآداب» تواصلٌ واعٍ بين التراث والمعاصرة عبر حوارٍ دائم».

وقال علي كنعان: «ولعلّ أبرز ميزة تفرّدت بها «الآداب» هي منطلقها القوميّ وتوجُّهها التقدُّميّ... وكانت فلسطين قضية القضايا التي حملت هاجسها، وكذلك ثورة الجزائر، وشتّى الجراح التي مُني بها الوطن العربي من أقصى مغربه إلى أقاصي المشرق... وقوميّة المجلة لم تقتصر على طرح الأفكار، وإنما تجاوزته إلى الواقع، فكانت أوّل وأحبّ مجلةٍ تنتشر في معظم أقطار الوطن وتحتضن مختلف الأقلام من المغرب إلى الكويت...».

ويتابع علي كنعان في روح من السخرية اللّاذعة: «ويبدو لي أن «الآداب» ارتكبت خطأً فادحاً في التزامها القوميّ وقوّة اندفاعها وسعة انتشارها... ويتجلّى هذا «الخطأ» في أنّها نبّهت القبائل والحكومات الإقليمية إلى خطورة الأدب، فاستحدثت هذه الحكومات في عواصمها مجلّات أدبيّة إقليمية على صورتها ومثالها، أي أنها لا تحمل من سمات العروبة غيرَ اللغة... وبعضهم لا يتحرَّج في أقلمة اللغة ذاتها!».

أما الدكتور عبد الغفّار مكاوي فوصف «الآداب» بأنّها «الساحة التي وقفت دائماً تحارب من أجل وَحدة العرب وتكافح لتعليمهم وفتح عيونهم على كلّ ما هو ثوريّ وإنسانيّ وجديد في الفكر والفن والسياسة والاجتماع».

ونصّت شهادة الشاعر شوقي بزيع على أن «الآداب» لم تترك منذ نشوئها «مناسبة أو حدثاً سياسياً عربياً إلّا وكان لها موقفٌ منه. وهكذا كانت شهادة على عصر عربيّ متفجّر، بدءاً من ثورة يوليو مروراً بحرب السويس وتجربتي الوحدة والانفصال وحرب الجزائر وحربَي حزيران وتشرين انتهاءً بالأحداث الأخيرة في لبنان». وأضاف يقول: «كان مفهوم «الرفض» عند «الآداب» إيجابياً وواعياً. فلقد فهمت في رفض التراث الساقطَ منه، محاولةً أن تتجاوز هذا التراث وتضيف إليه، لإيمانها بأنّ فيه عناصر فاعلة ومضيئة يجب الاستناد إليها والانطلاق منها في أية عملية تغيير... ولقد أملى هذا الموقفَ عليها التزامُها القومي وشعورها بدورها التاريخي الذي يجب أن تلعبه في بناء الثقافة العربية الجديدة».

وقال رشاد أبو شاور: «لقد مثّلت «الآداب» وطناً عربياً واحداً بلا حدود وبلا جوازات سفر، وكانت وما تزال هي الفندق القوميّ

التقدّمي الذي حاربنا منه الفرعونية والفينيقيّة وغيرهما من دعوات الإقليمية والطائفيّة».

وفي دراسة واسعة عن الفكر القوميّ في «الآداب» قال سامي خشبة: «كانت «الآداب» جزءاً من الحلم القوميّ، من «الأفعال» الرامية إلى تحويل الحلم إلى حقيقة».

وبعد أن يتحدّث الدكتور أبو القاسم سعد الله عن موقف «الآداب» المناضل من أجل القضية الجزائرية، ذهب إلى القول: «حَسْبُنا أن ننوّه بخطوة «الآداب» في رصدها لأحداث الأمة العربية والتعبير عنها قومياً، وحسبُها هي فخراً أنها أصبحت لسان حال جيلٍ كامل من هذه الأمة، جيل يؤمن بالوحدة العربية وبالتقدّم العلمي وبالتحرّر من جميع أشكال التبعيّة».

أما قضيّة فلسطين، فكانت القضيّة المركزية في اهتمامات «الآداب». كانت هذه المجلة مع ثورة شعب فلسطين، وغنّت للمقاتل الفلسطيني، ولم تَنْسَ، على حدّ تعبير رشاد أبو شاور، «زهرة الدم» الفلسطينية. . ومع أغنيات الأقدام الفلسطينية المقتحمة والمقاتلة، فتحت «الآداب» أبوابها لأدباء فلسطين الشباب، وكانت، على حدّ قول يحيى يخلف، «الساحة الواسعة لحركة الأدب الفلسطيني، وقد عبّأت الكلمةُ الفلسطينية مساحة كبيرة من صفحاتها» وخصّصت المجلة عشرات الأعداد للقضية الفلسطينية بمختلف وُجوهها.

★ ★ ★

على أن مفهوم الإبداع لا ينفصل، في وعي «الآداب» وتخطيطها، عن الحرّية والديموقراطيّة. كانت حرّية الأديب والمثقّف العربي هي همّها الرئيسيّ، ترفع رايتها، وتقاتل من أجلها، وتتحدّى، من أجل تحقيقها والحفاظ عليها، جميع سلطات القمع والإرهاب. وقد دفعت المجلة ثمن مواقفها هذه غالياً، حتى أن «مصادرة «الآداب» وإحراقها والتنكيل بها، أصبحت، على حدّ تعبير نزار قباني، تقليداً عربياً راسخاً» وهو يضيف إلى ذلك قوله «فالمجلة التي لا تُصادر في العالم العربي هي المجلة التي لا تقول شيئاً، ولا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً، ولا ترفع يدها احتجاجاً على شيء».

«لقد دافعت «الآداب» عن الحريّة الفكرية أجلّ دفاع، متحدّية كل المعوقات والمثبطات، بل والمدّمرات، من القوانين والأنظمة الرجعيّة» هذا ما يقوله ذو النونِ أيّوب.

ويقول الشاعر شوقي بزيع: «لقد حملت هذه المجلة مسؤولية التصدّي بشجاعة لكل أشكال القمع والإرهاب الإيديولوجي، وعبّرت عن ذلك في جميع المؤتمرات الأدبية، ومن بينها مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد في تونس عام ١٩٧٣».

والواقع أننا خضنا، بعد هذا المؤتمر خاصّة، معركة طويلة ضدّ سياسة القمع التي أنتهجها السادات وعَهِدَ بتطبيقها إلى المرحوم يوسف السباعي، كما كنّا خضنا معركة مماثلة ضد الإرهاب في العراق أيام نوري السعيد وعبد الكريم قاسم. وبتبنّي «الآداب» لقضيّة الحرّية الفكرية وتحريض المفكرين والمثقفين العرب، كانت، كما يقول موسى كريدي، «تنطلق من موقف حضاريّ. . . وكان هذا يمنحها ثقة كلّ بُناةِ الحرف الشريف، وكلّ القراء، ويعطيها حضوراً استثنائياً في المجال الثقافي والسياسيّ».

ويقول الدكتور عبد الرحمن منيف: «كانت الحرية همّاً أساسياً، أو الهمّ الأساسي لهذه المجلة منذ لحظة الميلاد. . . وما دامت الحرية الباب الكبير الذي دخلت منه «الآداب»، فلا بدّ أن تعكس كلّ رغبات وتطلُّعات وآمال المستقبل. وهكذا ابتدأت، إلى جانب الحرّيّات الديموقراطية المطلوب توفُّرها، مناقشاتٌ ومعارك لا تزال آثارها إلى الآن».

ونحن نزعم أن مجلّتنا فتحت صدرها لإنتاج كلّ أديب عربيّ كان يلقى في بلاده اضطهاداً أو تضييقاً على حرّيته أو في رزقه أو إحراجاً لوسيلة من وسائل الإعلام. ونكتفي هنا بإيراد شهادة المفكر المصري المرحوم الدكتور محمد النويهي الذي لم يجد مجلة مصرية تنشر مقالاً له حول شعر الشاعر المجدّد صلاح عبد الصبور، بحجّة أن موضوع المقال «حسّاس». وكان أن نشرته «الآداب» لم تحذف منه كلمة. وكذلك كان شأن دراسة كتبها النويهي بناء لطلب رئيس تحرير «المجلة» القاهرية عن «الفن القصصي الدرامي في شعر عمر بن أبي ربيعة» ولكن رئيس التحرير اعتذر عن نشرها لأنه «يخشى غضب المحافظين والمتزمّتين»، على حد تعبيره، فلجأ الكاتب إلى «الآداب»، «فبادرت إلى نشر دراستي لم تحذف منها سطراً ولم تغيّر كلمة» كما قال.

وأضاف الدكتور النويهي: «وازداد لجوئي إلى «الآداب» أنشر فيها كلّ ما تضيق به صحف القاهرة ومجلاّتها، من طريقتي الخاصّة الغريبة في دراسة الأدب القديم، ودفاعي عن الشعر الجديد، ودعوتي إلى تحرير الفكر وتغيير مفهوم «القوميّة» حتى يتّسع لتحليل الأخطاء والنقائص العربية، وتطوير مقاييسنا الأخلاقية وتجديد فكرنا الدينيّ. وهكذا نشرت لي «الآداب» أبحاثاً متعدّدة. . . تركتْ لي في جميعها الحرّيّة التامّة في التعبير عن آرائي مهما تكن مخالفة للعرف السائد القومي أو الديني أو الأخلاقي أو الفنّي».

وأنهى النويهي شهادته قائلاً: «وما فعلته «الآداب» لي فعلَتْهُ منذ نشأتها لعشرات آخرين من كتّاب العرب، على اختلاف مدارسهم السياسية والفكرية والفنّية. ولست أعرف في العالم العربيّ كلّه مجلة تناظرها في سعة صدرها وسماحها لاختلاف الرأي. فإن كانت حريّة التعبير من ألزم ما يلزم وطننا العربي كي يحقّق ما يصبو إليه من تقدُّم ورقيّ، وانتصار وعزّة، فإننا جميعاً مدينون أعظم الدَّين إلى «الآداب».

★ ★ ★

ونتحدّث الآن عن دور «الآداب» في تطوير النتاج الإبداعي في الحياة الأدبية العربية. لقد قلت في افتتاحية العدد الأول من المجلة عام ١٩٥٣:

«من أهداف «الآداب» أن تثير من القضايا الفكرية ما يحيي الحركة الأدبية الهامدة في البلاد العربية ويفسح المجال واسعاً للمناقشات والمطارحات والمعارك القلمية. ولا بدّ أن يكون لهذه الحركة أثر بعيد في الإقبال على الكتابة والقراءة كلتيهما. وهذا النشاط جميعه جديرٌ به أن يعطي الأجنبي فكرة صحيحة عن الأدب العربي الحديث ومشاركته في الحركة الأدبية العالمية... وستهتمّ «الآداب» اهتماماً شديداً بالآداب الأجنبية، فتعطي القارىء العربي صورة واضحة عن أحدث النتاج الغربي. عرضاً ودرساً ونقداً، وبذلك توفّر لقارئها ثقافة عامّة مديدة الآفاق، ثم إنّها ستتيح للأدباء والمفكرين العرب أن يتفاعل نتاجهم بالنتاج الغربي، فيكتسب قوة وعمقاً، فيما هو يحتفظ بطابعه وخصائصه الذاتية».

والواقع أن «الآداب» عُنيت عناية خاصّة بالشعر والقصة والنقد.

ونحن نعتزّ أشدّ الاعتزاز بالدور الذي نهضنا به في معركة الشعر الجديد، هذه المعركة التي انتهت بتكريس قصيدة الشعر الحرّ القائم على التفعيلة والتي تبنّتها «الآداب» كأعمق ما يكون التبنّي وأصفاه، كما يقول الشاعر سعدي يوسف «فشقّت حركةُ الشعر الحرّ سبيلها الثوريّ الذي غيّر البُنية الكاملة لشعر أمّة كاملة... وأقولها صريحة: إن عملية التغيير هذه لهي من الأصالة والشجاعة والاستمرار، بحيث لا يمكن أن نفصل انتصار حركة الشعر الحرّ عن مجلة «الآداب». ونعتقد أنها قامت هنا بالدور الذي تطمح المجلّات العظمى إلى القيام به: دور البؤرة التي تنتظم حركة واسعة للتغيير في ضمائر الأمم».

قال الشاعر شوقي بزيع: «لقد خاض الشعراء الروّاد عبر مجلّتهم صراعاً مريراً ضدّ التقليد، مواجهين حملة من الاتهامات والافتراءات من القوى المحافظة، وكان للآداب أثرٌ هامّ في دفع مسيرة الحداثة إلى الأمام، وتكريس الشعر الحديث كشكل من أشكال التعبير لا عودة عنه، كما أُتيح لكثير من شعرائنا الكبار أمثال السيّاب والبياتي والحيدري ونازك الملائكة وأحمد حجازي والفيتوري وعبد الصبور أن يجدوا في «الآداب» متراساً متقدّماً من متاريس الدفاع عن شعرهم الجديد، في حين كانت «الآداب» تفتح صدرها لكل الكتابات النقديّة المدافعة عن هذا الخطّ والمناهضة له في آن واحد، مؤمنة بأنّ التغيير هو وليد الصراع، وبأنّ هذا الصراع لا بُدّ وأن يؤدّي في النهاية إلى تثبيت المفاهيم الأكثر تقدُّماً ضمن الصراع نفسه».

أما البياتي فيقول: «كانت «الآداب»، بالنسبة لحركة الشعر الجديد، المجلة الأولى التي استقطبت روّاد هذه الحركة ومريديها وتلامذتها، بحيث أن صدور هذه المجلة كان بمثابة علامة أو نبوءة بأن الشعر التقليديّ قد بدأ يمضي وينتهي، أو أنه لم يعد قادراً على استيعاب هموم الإنسان العربي الذي خرج من عصر المجاعة المادّية والروحية».

وفي الحديث عن حركة الشعر الجديد، قالت سلمى الخضراء الجيوسي: «في تبنّي الآداب لمعركة التجديد، أفسحت المجال لذلك النقاش التاريخيّ الحادّ الذي تبع حركة الشعر الحرّ. فالآداب سجلٌّ وثائقي مهمّ لتطوُّر المفهوم الشعريّ في مطلع الخمسينات، وعلى صفحاتها وصل روّاد حركة التجديد الشعريّ إلى الشهرة والتمرّس. حتى إذا جاءت مجلة «شعر» سنة ١٩٥٧، وجدت القائمة مُعدَّة، تكاد تكون كاملة، ولم تحتج إلى أن تخوض المعركة التي نشبت إثر الصدمة العنيفة التي أحدثها الشعر الحرّ في الحساسيّة الشعريّة الموروثة، فقد خاضتها لها «الآداب» ومهّدت طريق التجديد، ووجّهت الحساسية الشعرية عند جيل الشبّان مطلع نحو تذوّق الإيقاعات الجديدة والتفاعل مع المحتوى الحديث».

وعلى هامش معركة الشعر الحرّ، عقد الناقد طراد الكبيسي مقارنة بين «الآداب» ومجلة «شعر»، فقال: «إن «الآداب» أسبقُ تاريخاً وتاريخياً في الصدور وتبنّي الشعر الجديد بأربع سنوات على الأقل، وأنها لم تتوقّف حتى الآن، بينما توقفت «شعر» مرتين قبل أن تموت نهائياً بانكشاف هُوّيتها، وأن كلّ شعراء العربية تقريباً التقوا على صفحات الآداب ومن مختلف الأجيال. أما مجلة «شعر» فقد انفضّ عنها الشعراء بعد أن دارت الشبهة حولها، واقتصرت على بعض أسماء، فكان اعتمادها الأساسي على الترجمات من الشعر العالمي».

ربما أكون قد أطلت الاستشهاد بأقوال النقّاد والدارسين حول معركة الشعر الحرّ، لأنّ هذه المعركة انتهت بانتصار هذا الشعر وتثبيت أقدامه، و«أصبحت له تقاليد وحصانة، ولم يعد مضطراً للدفاع عن النفس... وأصبح مخلوقاً حيوياً ينتقل من مكان إلى آخر، واضحاً جريئاً، ومتهوّراً في بعض الأحيان، وتمّ الاعتراف به نهائياً» على حد قول الدكتور عبد الرحمن منيف.

وتعتزّ «الآداب» أن صفحاتها، وصفحات منشورات دار الآداب بعد ذلك، قد ضمّت خير إنتاج ثلاثة أجيال من شعراء الشعر الحرّ: الجيل الأول هو جيل السيّاب والبياتي ونازك الملائكة وفدوى طوقان ونزار قباني وسلمى الخضراء وسليمان العيسى وبلند الحيدري وسواهم، والجيل الثاني هو جيل صلاح عبد الصبور وأحمد حجازي وخليل حاوي وسعدي يوسف وأمل دنقل وميشال سليمان ومحمود درويش وأحمد دحبور وحميد سعيد وعز الدين المناصرة وحسب الشيخ جعفر وممدوح عدوان وعلي الجندي وعلي كنعان وسواهم، والجيل الثالث هو جيل محمد علي شمس الدين وشوقي بزيع وإلياس لحود وجودت فخر الدين وعلي الخليلي وسواهم...

أما في مجال القصّة، فقد حفلت «الآداب» طوال أعوامها السبعة والثلاثين، بمجموعة من القصص القصيرة كانت خير نتاج القصّاصين العرب، من شيوخهم حتى شبابهم، وحتى ناشئتهم،

ابتداءً من عبد السلام العجيلي وجبرا ابراهيم جبرا وشاكر خصباك وفؤاد التكرلي وغائب طعمة فرمان وعبد الملك نوري ويوسف الشاروني، مروراً بسليمان فياض ومطاع صفدي وإدوار الخراط وعبد الحكيم قاسم ورشاد أبو شاور وسميرة عزام وغادة السمان ومهدي عيسى الصقر وموسى كريدي وغانم الدباغ وعبد الرحمن الربيعي ومحمد خضير وسواهم ممن احتلّوا المكان المرموق في فن القصّة العربية الحديثة.

يقول الدكتور عبد الرحمن منيف: «لقد لعبت «الآداب» دوراً متميّزاً وهامّاً في مجال القصّة والرواية. وإذا كان سهيل ادريس قد استطاع من خلال «الآداب» أن يساهم في إيجاد صحافة أدبيّة من نوع جديد، فإن مساهمته في بناء قصّة ورواية عربية كانت هامة وأساسية، ليس من حيث كونُه قاصّاً وروائياً فحسب، بل ومن خلال تكريس الاعتراف وتعزيزه لهاتين الأداتين من أدوات التعبير... وتبني إقامة مسابقات للقصة القصيرة والرواية... وقد لا يكون من المبالغة أن نشير إلى أن عدداً من ألمع كتّاب القصّة والرواية دخلوا هذا الملكوت من خلال «الآداب»، فجديرٌ بأن نسجّل لهذه المجلة دوراً كبيراً في مراحل تطوّر القصة القصيرة».

وأمّا في مجال النقد، فقد أسهمت «الآداب» في إخراج النقد العربي من نطاقه المحدود سابقاً بمراجعة الكتب، إلى آفاق الدراسة التفصيلية المدعمة بالفكر والمعرفة المتنوعة. ويضيف جبرا ابراهيم جبرا: «وبهذا كان لها دورها الكبير في إدخال النقد العربي في مجال العمليّة الإبداعية نفسها... وكان لباب «قرأت العدد الماضي من الآداب» أهميّة خاصّة برّرت ابتكار الدكتور سهيل ادريس لهذا الاتجاه في معالجة المقالات والقصائد والقصص معالجة متأنّية وتفصيلية لم يكن أيّ كاتب ليحلم بها في ما مضى أو إذا نشر في أية مجلة أخرى. وكان لهذه الطريقة في المعالجة مفعول في أنفس الكتّاب أنفسهم، فضلاً عن الإثارة التي كان يجدها القرّاء ويتمتّعون بها حين يطّلعون على ما يقوله النقّاد مدحاً أو قدحاً... وقد خُيِّل إليّ أن كلّ من أراد أن ينشر في «الآداب» كان يتحسّب لهذا النقد الذي سينشر بعد شهر، فيحاسبه على ما كتب. وكان في ذلك نوعٌ من إلزام الكاتب بأن يقول أحسن ما لديه، وأن يصوغه على أحسن ما يستطيع، وأن يُعنى بجزئيّاته التي يعلم أنها ستعرض لفحصٍ مجهريّ».

ويتحدّث الدكتور جلال الخيّاط عن باب «قرأت العدد الماضي» الذي ما تزال بعض المجلات تقلّده، فيقول: «لو سئلت عن خير مصدر لتتبّع الحركة النقدية في الأدب العربي، عبر ربع قرن، لما تردّدت في أن أشير إلى مجلّة «الآداب»، وليس لنا حين ندرّس النقد التطبيقي سوى أن نُرجع الطلبة إلى مقالات التنظير النقديّ في «الآداب»، وإلى قراءة موادّ عدد ما، ومناقشة نقدِهِ في العدد التالي. وبهذا أثّرت «الآداب» في الحركة النقديّة كلّها، وقدّمت في أعدادها سجلاً لمسيرة أدبية مشرّقة بدأت بداية عهد جديد للأدب العربي».

والحق أن «الآداب» قد فتحت أمام الكتّاب الشباب مجالاً واسعاً استطاعوا أن يمارسوا فيه إبداعهم، وينضمّوا سريعاً إلى جيل النقّاد الواعين من أمثال أنور المعداوي ومحمود أمين العالم ومحمد غنيمي هلال وعبد القادر القط ومحمد النويهي وشكري عياد وشاكر مصطفى وعبد اللطيف شرارة ورئيف خوري وعبد الله عبد الدايم. وخلال سنوات قليلة لمع من هؤلاء النقّاد الشباب عبد المحسن طه بدر وعبد الجليل حسن وأحمد كمال زكي ورجاء النقاش وسامي خشبه ونجيب سرور ومحيى الدين محمد ومجاهد عبد المنعم مجاهد وصبري حافظ ومحمد برادة وجورج طرابيشي وايليا حاوي وسواهم كثير ممن لا يزال الأحياء منهم حتى اليوم ينهضون بحركة النقد الحديث، معترفين بأن «الآداب» هي التي أتاحت لمواهبهم أن تتفتّح وتزدهر.

★ ★ ★

أيّها السادة الأدباء.

ما هو واقع «الآداب» اليوم، وما هي آفاق مستقبلها؟

إن «الآداب»، منذ نشأتها، أي منذ سبعة وثلاثين عاماً، تعاني من عدّة أمور:

أوّل هذه الأمور وأخطرها: أجهزة الرقابة. فأنا أؤكّد أنه لم يَنْجُ عددٌ واحدٌ من أعدادها، طوال هذه الأعوام، من براثن رقابةٍ ما من رقابات البلدان العربية. وفي لوائح المحاسبات التي توافينا بها شركة التوزيع كلّ شهر إشارة إلى بلدٍ ما صادرَ عدد ذلك الشهر، من غير ذكر لسبب المصادرة طبعاً، كأنما تخشى الرقابةُ أو تخجل من ذكر السبب!

ولكن خطورة نتائج الرقابة بلغت، في فترة من الفترات حَدّ تعرُّض «الآداب» إلى الاحتجاب.

فمن المعروف أن العراق كانت سوق الرئيسية للمجلّة، وأن الكتّاب والقرّاء العراقيين كانوا أشد إقبالاً على «الآداب» من سائر الكتّاب العرب والقراء العرب. وقد بلغ رقم التوزيع في سنوات المجلة الثلاث الأولى، أي من عام ١٩٥٣ إلى ١٩٥٥، ما يقارب الألفي نسخة، فكان هذا يحقّق لـ «الآداب» تغطية النفقات وقدراً من الربح قد لا يساوي الجهد المبذول في إصدارها، ولكنّه يحميها من الأزمات المالية. غير أن اشتداد قبضة الرقابة عام ١٩٥٦ في عهد نوري السعيد، بحيث مُنعت معظم أعداد ذلك العام، أوقع المجلة في أزمة مالية خانقة جعلها تفكّر في الاحتجاب حقاً. وكان أن عمدت إلى تدبير يقضي بزيادة صفحات المجلة بضع صفحات إضافية تُحشد فيها «المادّة المتفجرّة الثائرة» على أن توزّع في سائر الأقطار. أما العراق، فلا تُثبت في نسخِهِ هذه الصفحات الإضافية، ريثما يقوم في ذلك القطر حكمٌ متحرّر وقوميّ.

هذا التدبير الاستثنائي دام أقلّ من عام (١٩٥٧)، وقد جنّب «الآداب» تفاقم الأزمة المالية التي استطعنا تجاوزها بإنشاء «دار

الآداب» التي شاركني في إنشائها الشاعر نزار قباني، وحققتْ منذ منشوراتها الأولى أرباحاً طيّبة، وحين انفصل نزار لينشيء داره الخاصّة، أدخلتُ حسابات مجلة الآداب في حسابات دار الآداب التي أصبحت بأرباحها تغطّي خسارة المجلة. وهكذا تدين المجلة للدار باستمرارها وبقائها حتى اليوم.

إن «الآداب» مجلّة خاسرة بالميزان الماليّ. ومرجع ذلك إلى أنها لم تطلب يوماً دعماً مالياً من أيّ نظام أو حُكم أو مؤسسة رسمية، وإن كان هذا لا يمنعها من قبول الاشتراكات الرسميّة التي لم يبق منها اليوم إلا اشتراك واحد، هو اشتراك لدولة الكويت بمئة نسخة من كل عدد، قيمتها السنوية ألفا دولار فقط. وقد وعت «الآداب» منذ صدورها أن ارتباطها بأيّ نظام أو دولة يُفقدها ولو جزءاً من حرّيتها في التعبير أو الاختيار، وهو بالتالي «يُسلّعها» ونحن من الذين يؤمنون بأن تسليع الأدب هو عدوّه المميت.

ومن الطبيعيّ أن تكون قاعدة التعامل بين «الآداب» وكتّابها عدم التعويض على إنتاجهم، إلّا أن تكلّفهم رئاسة التحرير بكتابة مادّة معيّنة أو تطلب منهم أثراً من آثارهم للنشر، وعند ذلك تدفع للكاتب مكافأة رمزية.

وأودّ أن أروي لكم هنا، على سبيل الإمتاع والمؤانسة، أني كنت طلبت من صديقي المرحوم الدكتور محمد مندور أن يكتب لـ «الآداب» بعض مقالاته الأدبية والنقدية. وقد أرسلت له، بعد نشر مقاله الأوّل عام ١٩٥٣ رسالة شكر أرفقتها بكلمة أقول فيها «أرجو أن تقبل أيها الصديق الكبير المبلغ المرفق كمكافأة رمزيّة على المقال» وكان المبلغ ثلاثة جنيهات مصرية... ولم ينقطع مندور عن الكتابة للآداب، ولم أنقطع أنا عن موافاته بالمكافأة «الرمزية»، ولكنّه أخذ يقصرّ مقالاته بحجّة أن المكافأة لا تساوي أكثر من صفحتين! ثم زرته في القاهرة، رحمه الله، فجرى بيننا الحوار التالي:

ـ هل صحيح أنك نلت دكتوراه للآداب من السوربون؟

أجبت: ـ هل تشكّ في ذلك يا دكتور؟

قال: نعم، أشك!

أخذني الغضب، وأوشكت أن أنهض لأغادر منزله احتجاجاً، ولكنه سارع يقول:

ـ اجلس يا عزيزي. وأصْغ إليّ. إنني أشكّ في أن تكون قد حصلت على الدكتوراه لأنك لم تدرس المدارس الأدبية جيّداً... أو لأنك توقفت في هذه الدراسة عند المدرسة «الرمزية» فقط.. ولم تعرف أن هناك مدارس أخرى تبعت الرمزية.. هناك المدرسة «الواقعية»، والمدرسة «المادّية» و.. و..

وانفجر كلانا بالضحك!...

★ ★ ★

في السنوات الخمس الماضية، تأثّرت «الآداب» تأثّراً عميقاً بالوضع الأمني الناتج عن الحرب الأهلية في لبنان. وكان من نتيجة ذلك أن تعثّر صدورها فلم نتمكّن من إصدارها شهرياً. ولكننا ظللنا صامدين، ندافع العقبات والمصاعب، ونجلب ما تطاله أيدينا من ملفّات المؤتمرات والندوات، إلى النزر اليسير من نتاج الأدباء الذي يوافينا به البريد.

ويهمّنا هنا أن نؤكّد حرصنا الشديد على مادّة «البريد». فهذه المادّة التي يستخفّ بها البعض ويعتبرونها من «سقط المتاع» هي التي تشكّل في نظرنا «الخميرة» الحقيقية للمواهب الواعدة، لا تلك التي يطلبها رؤساء التحرير من أصحاب الأقلام المتمرّسة المشهورة. ونحن نعتزّ بأن يكون معظم الأدباء، من الشعراء والقصّاصين والنقّاد، الذين يقودون اليوم الحياة الأدبية، في أربعة أركان الوطن العربي، إنما وُلدت مواهبهم وترعرعت على صفحات «الآداب» التي كانت تتلقّف إنتاجهم، وهو ما يزال براعم، من «صندوق البريد». وقد وصف الكثيرون هذه المجلة بأنها مدرسة لتخريج الأجيال المتعاقبة من الأدباء العرب المبدعين الذين يتدرّبون في «الآداب» حتى مرحلة التخصُّص، قبل أن ينتقلوا إلى المجلّات الأخرى، ولا سيّما المجلّات الرسمية التي تصدر عن وزارات الثقافة والإعلام.

وإذا قيل اليوم إن «الآداب، قد أصيبت في أعوامها الأخيرة بالضعف والضمور، فإننا نتساءل: أيّ مرفق من مرافق الحياة العربية، على اختلاف أشكالها وألوانها، لم يضمر ولم يهزل؟ ألسنا نعيش اليوم أردأ الزمن وأسوأ الأيام؟ ألم نفقد معظم مكاسبنا القومية؟ ألا نشاهد الشقاق والخلاف والتشرذم يعيث في صفوفنا وينخر حياتنا كلها؟ ألا نعيش، نحن في لبنان، عهد الهدم والدمار، على فلول الإبداع والازدهار؟

وبالرغم من أن «الآداب» لا تستطيع أن تنافس وزارات الثقافة والإعلام، ولا المجلّات المدعومة، المقيمة منها أو المهاجرة خارج أوطانها، والمرصودة لها الميزانيات الضخمة، من غير أن يكون مستواها أرفع بالضرورة من مستوى «الآداب»، فإن صمود هذه المجلة، وهي اليوم في عامها الثامن والثلاثين، مستمدٌّ من إيمانها بأن الأمة العربية التي تعاني الآن ما تعاني من البلايا والمحن، لا بدَّ من أن تنهض من جديد وتستردّ عافيتها وتستأنف مسيرتها لتبني الحضارة العربية الجديدة، ولا مناص آنذاك من أن يكون الفكر والثقافة والأدب من دعائم هذه الحضارة، بل ركيزتها وأساسها، ولا مناص من أن تعود «الآداب»، في آفاق مستقبلها، على أيدي أولادنا أو أحفادنا، إلى استعادة دورها الريادي في الحياة الثقافية العربية(*).

بيروت

(*) شهادات الأدباء التي وردت في هذا البحث مقتبسة في معظمها من عدد «اليوبيل الفضّي للآداب» الذي صدر عام ١٩٧٧.